الباب التاسع

فى دولة السلطان الأعظم الخاقانى الأفخم السلطان سليم(١) خان الثانى

صاحب الخيرات الجارية والجوامع والمبانى، تغمّده الله بالرحمة والرضوان وسقى ضريحه زلال الكرم والعفو والغفران، وحَفّ بروائح الروح والريحان.

كان مولده الشريف سنة تسع وعشرين وتسعمائة، وجلوسه الكريم على تخت ملكه الشريف بالقسطنطينية العظمى فى يوم الاثنين لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة، ومدّة سلطنته الشريفة تسع سنين، وسنُّه حين تسلطن ستٌّ وأربعون سنة، وعمره كلّه ثلاث وخمسون سنة.

وبعد ثلاثة أيام من جلوسه على التخت الشريف توجّه إلى سكتوار لحفظ عساكر الإسلام المجاهدين فى سبيل الله فى حاقّ بلاد الكفر مشغولين بفريضة الجهاد، بغاية الجدّ والاجتهاد، وسار سَيْرًا حثيثًا إلى أن وصل ركابه الشريف السلطانى إلى سرحد(٢) يقال له سرم، فلاقته عروض حضرة الوزير الأعظم آصف الزمان محمد باشا، أنعش الله بوجوده ملّة الإسلام إنعاشًا، يتضمّن هجوم الشتاء عليه وتيسّر فتح قلعة سكتوار، وقمع مردة الكفار الفجار، والتمس الإذن الشريف السلطانى للعسكر المنصور الخاقانى بالعود

(١) انظر فى السلطان سليم: المنح الرحمانية ص١٨٥.

(٢) فى م: «موضع» وسرحد: كلمة مركبة من: «سر» الفارسية بمعنى رأسى، و«حد» العربية بمعنى: الحدود، أطلقت على حامية عسكرية من وحدات البرلية فى العهد العثمانى، مهمتها حراسة حدود الدولة وحرمان العدو من عنصر المفاجأة فى الانقضاض على مواقع الجيش المرابط على الحدود.

إلى الأوطان، واستمرار الركاب الشريف السلطانى بذلك المكان، إلى أن يصل هو مع بقية الوزراء وأركان الدولة إلى لثم الركاب الشريف السلطانى، والاكتحال بتراب الباب الشريف الخاقانى، وبعد ذلك يعودون فى الخدمة الشريفة السلطانية إلى مقرّ التخت الشريف السلطانى بالقسطنطينية العظمى، فأُجيب حضرة الوزير الأعظم إلى ما أشار إليه واستقرّ ركاب السلطنة الشريفة بذلك المحلّ والقرار عليه إلى أن ورد حضرة الوزير الأعظم المشار إلى حضرته العلية وباقى الوزراء وأركان الدولة الشريفة وقبلوا الركاب الشريف السلطانى وهَنَّؤُوه بالملك الشريف الخاقانى وعادوا فى خدمة السلطنة الشريفة إلى إسطنبول، بغاية البشر واليُمْن والقبول.

وعند الوصول إلى باب السَّراى السلطانى حصل من رعاع العسكر وغوغائهم مدافعة وممانعة من دخول إلى السَّراى الشريف وطلبوا عادتهم عند تجدُّد السلطان أدَّت إلى سُوء أدب عن بعض جُهَّالهم، فجاء المرحوم المفتى الأعظم رئيس العلماء الأعلام، وكبير كبراء الموالى العظام، مولانا أبو السعود أفندى العمادى يسر الله تعالى خطاه فى الجنة[1]، وأفاض عليه سحائب الأجر والثواب والفضل والمنّة، فوعظ العسكر وألاَن لهم الكلام والتزم لهم بعوائدهم وترقياتهم وعطاياهم العظام فلانوا بعد القَسْوة، واستغفروا من تلك الهَفْوة، وصحوا من سُكْر الجهالة، واهتدوا بعد الضلالة.

ودخل حضرة السلطان الأعظم إلى سَرَايه الشريف، وجلس على تخته العالى المنيف، ووفى للعسكر بما التزم لهم به حضرة المفتى الأعظم، وأفاض إحسانه عليهم وأنعم، وأصرف فى ذلك خزائن عظيمة لا تُحْصَى، ووزع عليه من الورق والعسجد ما لا يُحْصَى ولا يستقصى، وأمر بقتل بعض من كان سببًا لهذه الغوغاء من السُّفَهاء، وسكنت الفتنة ولله الحمد على جزيل النعماء، وله الشكر على جميع الألَى، وله الحمد فى الآخرة والأولى.

(١) كذا فى م. وفى ل: «حشر الله تعالى خطاياه فى الجنة».

ودخل عليه العلماء العظام، للتهنئة بالملك والتحيّة والسلام، ثم أركان الدولة على قوانينهم وحصل لهم بحسب مراتبهم الإجلال والإكرام، وقرّت عيون الأنام، بكمال الأمن والاطمئنان وتمام حُسن الانتظام.

ثم جهّزت البشائر السلطانية إلى الممالك الشريفة العثمانية بالخلع الشريفة الفاخرة الخاقانية فحصل لنُوَّاب السلطنة الشريفة كمال الفرح والسرور، وتمام البشر والحبور بانتظام الأمور، ووصلت التهنئة من ملوك الأطراف بالتُّحف والهدايا اللطيفة الظراف وقرّت العيون، وزالت الغبون، واستقرت الخواطر والظنون.

وكان سلطانًا كريمًا، رءوفًا بالرعية رحيمًا، عَفُوًا عن الجرائم حليمًا، محبًا للعلماء والصلحاء، محسنًا إلى المشايخ والفقراء، كان إحسانه يصل إلى فقراء الحرمَيْن الشريفين وهو شاه زاده، وتصل تشاريفه وكساويه فى كلّ عام إلى العلماء والفقهاء وكان يصل إليّ إحسانه وكسوته فى كل سنة، بعد أن ولى السلطنة الشريفة لم يقطع عادة إحسانه، واستمرّ يصل ذلك إليهم فى كل عام بحيث أضيف ذلك إلى دفتر الصُّرَّة الرومية، ويقسم كل سنة على حكمه السابق إلى الآن، فهو الملك الهمام المحسن المنعام، الفائض الإحسان والإنعام، طالما طافت بكعبته الآمال واعتمرتْ، وصدعت بأوامره الليالى فَأتمرت، وغرس فى رياض السعادة غروس أشجار السيادة فبسقت وأثمرتْ، وعمرت بحسن نظره أرجاء البلاد فتمدّنت بعد الخراب وعمّرَتْ، ودمّر بسياسته أركان الظلم فخرت ديار الظالمين ودمّرت، كم أظهرت لسواد الكفرة يد صَارِمِه البيضاء آية للناظرين، وكم جهّز جيوشًا للجهاد فى سبيل الله فقطع دابر الكافرين، فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد، ومنها فتح تونس الغرب، وحلق الواد، ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العُصاة البُغاة أهل الإلحاد، ومن خيراته تضعيف صدقة الحَبّ، وإرساله مُدَّة سلطنته إلى الحرمين الشريفين، ومنها الأمر ببناء المسجد الحرام زاده الله شرفًا وتعظيمًا وكل ذلك من الآثار العظيمة، والمزايا الفاضلة الكريمة، فلنذكرها

بطريق الإجمال، لضيق المجال.

فأمّا قبرس فإنها ـ بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوامّ ـ جزيرة فى البحر قال الفقيه العدل المفنّن أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحميرى فى كتابه الروض المعطار فى أخبار الأقطار: قبرس جزيرة على البحر الشامى كبيرة القُطر مقدارها مسيرة ستة عشر يومًا، وبها قُرًى ومزارع وأشجار ومواش، وبها معدن الزاج القبرسىّ ومنها يُجْلَبُ إلى سائر الأقطار، وبها ثلاث مُدن ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان فى البحر، وقبرس على ممرّ الأيام رخاؤها شامل وخيراتها كاملة[1].

وكان معاوية غزاها وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار، فنقضوا عليه فغزاهم ثانية فقتل وسبى سَبْيًا[2] كثيرًا، وروى أنه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبى فيما بينهم بكى أبو الدَّرْداء وتنحّى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه تجرى على خَدَّيه، فقيل له: أتبكى فى يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله، وأذلَّ الكفر وأهله؟ فضرب على منكبيه وقال: ويحك ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، فإنما هى قوّة ظاهرة وقدرة قاهرة لهم على الناس إذا تركوا أمره فصاروا أذلّة وصار حالهم على ما ترى من السبى والإهانة[3].

وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين جزيرة رودس مسافة يوم واحد، وإنّما سُمّيت جزيرة قبرس بوثَن كان هناك يُسَمَّى قابرس، كان يعظّمه الكفار ويعظمون لأجْله جزيرة قبرس[4].

وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغناء واليسار، وبها معادن الصفر، ويُجمع

(١) الروض المعطار ص٤٥٣.

(٢) فى الأصلين: «شيئًا» والمثبت لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف.

(٣) الروض المعطار ص٤٥٤.

(٤) المصدر السابق.

منها اللادن الحسن الرائحة الذى يغلب العود فى طيبه، وهو الذى يجمع منه على الشجر خاصّة، وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية لأنه أفضله، وما يجمع منه ممّا تساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس(١).

وكانت أُمُّ حَرَام بنت ملْحان الصحابية رضى الله عنها شهدت غزوة قبرس فتوفّيت بها، وأهل قبرس يتبرّكون بقبرها ويقولون هو قبر المرأة الصالحة، وكانت سألت رسول الله ﷺ ليدعو لها الله عزَّ وَجَلَّ أن يجعلها من الذين يركبون ثبج البحر مجاهدين فى سبيل الله، ففعل، وهو حديث معروف(٢).

وكان الأوزاعى يقول: إنا نرى هؤلاء، يعنى أهل قبرس أهل عهد، وأن صُلحهم وقع على شىء فيه شرطٌ لهم وشرط عليهم، وأنه لا يَسَعُهم نقضه إلا بأمر يعرف به عذرهم(٣).

ورأى(٤) عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعَهْدهم فكتب إلى عدّة من الفقهاء يشاورهم فى أمرهم، منهم الليث بن سعد وسفيان بن عُيَيْنة وأبو إسحاق الفزارى ومحمد بن الحسن، فاختلفوا عليه فأجاب كل واحد بما ظهر له(٥).

قالوا: انتهى خراج أهل قبرس الذى يُؤَدّونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وسبعة وأربعين ألف(٦). انتهى ما ذكره صاحب الروض المعطار.

قُلْتُ: وقد تقدّم ما نقلناه أنها افتتحت فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة السلطان الملك الأشرف برسباى الدُّقماقى وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة فكان أهل قبرس فى أيام الدولة الشريفة العثمانية مهادنين يدفعون

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) كذا لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف، وفى الأصلين: «غدرهم» بالغين المعجمة.

(٤) كذا فى م ومثله لدى الحميرى الذى ينقل عنه المصنف، وفى ل: «وروى».

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

إلى الخزانة العامرة السلطانية ما كان مقرّراً عليهم، غير أنهم أخذوا فى المكر والخداع وإظهار الطاعة والوفاق، وإخفاء الغدر والشقاق، فصاروا يقطعون الطريق فى البحر على المسلمين وإذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين قتلوا جميع من ظفروا به فى تلك السفينة وغرقوها فى البحر لإخفاء ما فعلوه، وصاروا يؤوون قطاع الطريق من النصارى ويساعدونهم على المسلمين إلى أن كثر أذاهم وعمّ ضررهم فاستفتى المرحوم السلطان سليم خان من المرحوم مفتى الإسلام مولانا أبى السُّعُود أفندى العمادى رحمهما الله تعالى فأفتاه بأنهم غدروا ونقضوا العهد وأن قتالهم جائز بسبب ما ارتكبوه من الغدر والخيانة[١].

فجهّز عليهم حضرة السلطان سليم جيشًا كثيفًا وعسكرًا منصورًا منيفًا أرسلهم من البرّ، وعمارة عامرة من جانب البحر وجعل سردار الجميع حضرة الوزير المعظم، والمشير المفخم، نظام العالم، مدبر مصالح جماهير الأمم، قائد جيوش الموحدين، قاهر جنود الكفار والملحدين، اعتضاد الملوك والسلاطين، اعتماد الغزاة والمجاهدين المخصوص بعناية رب العالمين، حضرة مصطفى باشا اللالا[٢]، زاده الله تعالى عزاً وجلالاً، وسعادة وسيادة وإقبالاً، وأيده بالنصر المبين فى الفتح القريب إسعاداً وإجلالاً، فامتثل الأمر الشريف السلطانى، وبرز محفوفًا بالنصر الصَّمَدانى، والعون الربانى، ومعه عسكر جَرَّار، من كل بَطَل مِغوار، ملئُوا وجه الأرض براً وبحراً، كأنّهم قطعة نار مضطربة أو أشدّ حرًا، أَيَّانَ سلكوا دهكوا وملكوا، وأَيَّانَ صدفوا من الأعداء سفكوا وفتكوا.

وضربت طبول النصر فكانت كنفخ الصُّور، وانتشرت العساكر المنصورة فشوهد يوم الحشر والبعث والنشور، وتوجّه حضرة الوزير مظفراً مؤيّداً منصوراً، وسَعَى إلى جهاد الكفار وكان سعيُهُ مشكوراً، وطوى المراحل

(١) المنح الرحمانية ص١٨٥.

(٢) المنح الرحمانية ص١٨٦.

والمنازل وهو يطوى الأرض طيًا، ويفرى بسيف عزمه أديم المهامه والمناهل فَرْيًا، إلى أن وصل ركابه العالى، ومن معه من الجيش المنصور المتوالى، إلى جزيرة قبرس فأحاط بقلاعها إحاطة الخاتم بالإصبع، وفرق الجنود على حصونها فكانت من كل حصن أحكم وأمنع، وقد تحصّن بها الكفار واعتصموا بقُلَلها، وأحكموا خنادقها وأوعروا مسالك سهلها وجبلها، فارتجت بوصول العساكر المنصورة حصون تلك الجزيرة وقلاعها، وتزلزلت جبالها ورمالها وأصقاعها وبقاعها.

وكان من أحكم الحصون المشيّدة ثلاث قلاع، فى غاية العُلُوّ والارتفاع، ونهاية المنعة والقوّة والامتناع، شامخة البنيان، راسخة الأركان، أقْواها قلعة ماغوسا لا يُحَلّق عليها من الطيور إلا النسران، ولا يوازن أبراجها من بروج السماء إلا الميزان، تلامس فى العلوّ والشهوق، نجوم الثريا والعيّوق، وتوازى بناء الأهرام فى الإتقان والإحكام بل تزيد عليها وتفوق، لا تبالى بضرب المكاحل والمدافع، ولا يوهنها قرع المقارع والمقامع، مشحونة بآلات الحرب من جميع الأنواع، مملوءة بالمقاتلة وأهل القراع، محشوّة بأجلاف النصارى الأبطال أهل الصيال والصراع، وفيهم من الرُّماة من يرمى على الحَدَق، ويحرّر فلا يخطئ من الدرع الحلق، وعندهم المياه والفواكه والأقوات والزروع والبساتين، ومن دونهم خنادق عريضة نازلة إلى تخوم الأرضين، محميّة بالمدافع الكبار، ترمى من أعلى القلاع إلى من يقرب منها بالليل والنهار.

فأحاطت العساكر المنصورة السلطانية بتلك القلاع والحصون، وناوشوهم القتال وأذاقوهم كئوس ريب المنون.

وقاتلهم المسلمون بالليل والنهار، وقابلهم الموحدّون برَمْى المدافع الكبار، بالأصيل والأسحار، فكاد النهار أن ينقلب ليلاً بدُخان البارود البارق، والليل ينقلب نهاراً ببوارق فتائل البنادق والصواعق، فحاصرهم المجاهدون فى سبيل الله وضيّق عليهم جنود الإسلام الغزاة، ورموا بالمدافع الكبار السلطانية

عليهم فحطمت دورهم، وهدمت قصورهم، فصارت بيوتهم قبورهم، وكُسرت ظهورهم، فافتتحت قلعتان، وبقيت القلعة الثالثة وهى ماغوسا وفيها سلطانهم محصور، وكلٌّ محصور مأخوذ ومأسور، فثبت وأظهر الجلد، وكابد فى محاصرته أنواع الكمد، إلى أن وهنت قُوَاه، وذابت كبده وحُشَاه.

واضطرّ إلى طلب الأمان، والتذلُّل لحضرة الوزير الرفيع الشان، فشملته عناية حضرة الوزير المعظم المكين وأعطاه الأمان، وشرط عليه أن يفكّ من عنده من أسارى المسلمين، ويَدُوس البساط الشريف السلطانى ليتمّ له التأمين، ويَحْصُل له التطمين، فوافق على ذلك وأطلق الأسْرَى وحضر ليقابل حضرة الوزير المعظم جبرًا وقسرًا فأخبر بعض الأسارى أنه خان، بعد انعقاد الأمان، وقتل جماعة من أسارى المسلمين بالسيف صبرًا وأخفى ذلك عن المسلمين وفعل هذه الخيانة سرًا.

فلما علم حضرة الوزير المعظم أن ملكهم قد خان، طلبه إلى بين يَدَيْه وأهانه غاية الهوان، وركب وحمّله غاشية السَّرج وأمره أن يمشى قدامه كسائر الغلمان، ثم ضرب عنقه لخيانته ونقض عهده وأخذ أمواله وذخائره وقتل من أراد واستأسر واسترق من أراد.

وصارت جزيرة قبرس دار الإسلام وأضيفت إلى سائر الممالك الإسلامية العثمانية باجتهاد هذا الوزير المعظم، وإصابة رأيه وتدبيره الصائب الأتمّ.

وما بلغنى تفصيل ما وقع فى هذه الغزوة وما أمكننى تحقيقها، وأردت كثيرًا إفرادها بالتأليف وذكر ما وقع فيها فلم أظفر بذلك، فإن أظفرنى الله تعالى بالاطلاع على أكثر ممّا ذكرته هُنا أجعل له تاريخًا مستقلاً واسع المجال لطيف المفاكهة بليغ المقال إن شاء الله تعالى.

وأمّا فتح بلاد اليمن[1]، فإن إقليم اليمن من صنعاء إلى عَدَن كانت داخلة فى الممالك الشريفة السلطانية العثمانية فى أيام دولة المرحوم السلطان الأعظم سليمان خان، أسكنه الله تعالى فردوس الجنان، وحفّ روضته الطيبة الطاهرة

(١) انظر فى فتح بلاد اليمن: المنح الرحمانية ص١٨٧.

بالروح والريحان.

وكان أوّل فتحها الخاقانى على يد الوزير المعظم سليمان باشا الخادم بكلربكى مصر لما توجّه إلى الهند لغزاة الإفرنج البرتغال فى سنة خمس وأربعين وتسعمائة فأقام بكلربكيًا، واستمرّ كذلك فى تصرُّف البكلربكى الذى تولّى من الباب الشريف السلطانى يتولّاها واحد بعد واحد إلى أن وُزِعت مملكة اليمن بين بكلربكيَّيْن بعَرْض المرحوم محمود باشا: إن مملكة اليمن واسعة يمكن أن يولّى فى أعلاها فى الجبال من صنعاء إلى تعزّ بكلربكىٌّ، ويولّى فى التهائم[1] وهى[2] زبيد وسائر السواحل والبنادر بكلربكىٌّ آخر، وكان هذا عين الخطأ، فإن ذلك مظنّة الاختلاف والجدال، كما قال الله تعالى الحكيم المتعال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فقبل عرضه فى الباب العالى قصدًا إلى تكثير المناصب وتعديد البكلربكية[3].

فولى أعلى اليمن وجبالها المرحوم مُراد باشا وكان يقال له كور مراد لخللٍ كان بإحدى عينيه وكان خرج من السراى السلطانى وكان من أمراء السناجق، وصار أمير الحاج الشامى، ثم ولى سنجق غَزَّة ثم أعطى نصف مملكة اليمن[4].

وولى جهة التهائم لحسن باشا وهو أيضًا من المماليك السلطانية برز من السراى السلطانى، فانقسمت عساكرها وأموالها ومحصولها نصفَيْن، وضعُفَ أمر كل واحد منهما، وكان مطهَّر بن شرف الدين يحيى الزيدى لعب الشيطان بعقله، وسوّلت له نفسه العصيان وكانت داعية العصيان مُضْمرة فى خاطره، طمعًا فى الملك فصادف انقسام المملكة وصول خبر وفاة المرحوم السلطان سليم خان، فأظهر العصيان هو ولفيفه من العُربان، وجهّز أميرًا من

(١) أى منطقة التهامة.

(٢) لدى ابن أبى السرور البكرى وهو ينقل عن المؤلف: (وبين).

(٣) المنح الرحمانية ص١٨٧.

(٤) المصدر السابق ص١٨٩.

أمرائه يقال له على بن شُوَيْع، وجمع عليه العربان فقطعوا الطريق على مراد باشا فى مَحَطَّة ذِمار وهو غافل من عصيانهم، وكان قاصداً من تَعِز إلى صنعاء وهى محصورة بالعربان الزيديّين فعدموا عليق الخيل وخلوا من الطعام بالكلية، وكلّما أرسل من طائفته من يأتيه بالغلال والميرة قطعوا عليه الطريق وقتلوه[١].

فلمّا زاد به هذا الأمر، وفطن لعصيان العربان، رجع مراد باشا إلى تعز، وسلك وادى خُبَّان وهو محلٌ وَعِرٌ بين جبلَيْن عاليين فى غاية الوعورة والصعوبة عسر المسلك كثير المهلك، فلمّا توسّطوا بين هذين الجبلين وقد امتلأت قُللهما بالأعراب كالجراد المنتشر والسحاب، رموهم بالأحجار والصخار الصغار والكبار، وأطلقوا عليهم المياه فصار مراد باشا وعسكره يخوضون فى ذلك الماء وقد ازدحموا على محل الخروج وهو مكان ضيق سدّته الجمال والأحمال وليس فيهم منعة ولا لهم نجدة ولا لخيلهم قوة ولا قدرة على الجولان، فاستسلموا للقتل وقُتل منهم من دنا أجله[٢].

وخرج مراد باشا ومعه نحو عشرين سنجقًا، فكبستهم العربان وسلبتهم وتركوا كلّ واحد منهم عريانًا فى لباس، وسائر بدنه مكشوف، فأووا إلى مسجد يقال له مضرّح، وعيون المنايا تسرح إليهم وتطمح، فوصل إليهم شيخ مضرّح وكان له ثأر قديم عند الأروام وكان سليمان باشا صلب أباه لَمّا افتتح عدن فصاح: واثأراه، وقتل مراد باشا وأرسل برأسه إلى مطهّر وقيّد الأمراء وأرسلهم إلى مطهّر فلم يقتلهم، بل حبسهم فى مطامير تحت الأرض ومات بعضهم من الضيق والضنك، وخلص منهم من له بقية عمر بعد ذلك[٣].

واستمرّ أمراء مطهّر يأخذون جبال اليمن إلى أن أخذوا صنعاء وتعزّ

(١) أورده صاحب المنح بنصه ص١٩٠ نقلاً عن المؤلف.
(٢) أورده كذلك البكرى بنصه ص١٩١ نقلاً عن المؤلف.
(٣) المنح الرحمانية ص١٩١.

وحصن حَبّ وعدن وعجزوا عن أخذ زبيد صانها الله تعالى، وبها شرذمة قليلة من الأروام مع حسن باشا مع ظلمه وغشمه لأهل زبيد ومصادرته لكل أحد، ووصل لأخذها على بن شُوَيْع ومعه فوق خمسين ألف مُقاتل وحطّ خارج زبيد فخرج إليه بقية العسكر السلطانى وهم نحو مائتى فارس، وبرزوا لقتال هذا الجَم الغفير ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] وحملوا عَلَى عَلِىّ بن شويع وقد ألقوا أنفسهم إلى التَّهْلكة فتزلزلت أقدامه وفرّ هاربًا وسقط من فرسه فى هروبه ولحقه جماعة من الأسباهيّة[١] أرادوا قتله، فلحقه عبدٌ من عبيده بفرس فركب وهرب ونجا بنفسه لا نجاه الله تعالى[٢].

وسُمعت من مقابر زبيد أصوات مدافع ترمى عليهم من غير أن يُرى شخصٌ فنصر الله المؤمنين على أولئك الملحدين فى الدين، وقُتل منهم ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وغنمت العساكر وطاقهم وأحمالهم وأثقالهم وولّوا على أدبارهم راجعين ولم يقدموا بعد ذلك على زبيد، كأنما عليها حصن من حديد، من عند الله العزيز الحميد[٣].

فلمّا أحاطت العلوم الشريفة السلطانية بما وقع من هذا الاختلال فى اليمن، برزت الأوامر الشريفة إلى بكلربكى مصر يومئذ المكرم المفخم نظام العالم، صاحب السيف والقلم، مدبر مصالح جمياهر الأمم، فاتح ممالك اليمن الأيمن، من كَوْكبان إلى عَدن، وقالع قلاع حلق الواد وآخذ بلاد تونس الغرب ودافع عنها الكفر والمِحَن، ليث عرين الوطيس افتراسًا، وشدّةَ جَأشٍ وبَأسًا، الوزير المعظم سنان باشا، أنعش الله به الدين الحنيفى إنعاشًا، وأيّد بنصره أهل السُّنّة السنيّة وفرش الأرض بمعدلته فراشًا، فإنه أسدٌ ضرغام، وليث قمقام، وحسام صمصام، وكريم محسن فائض الجود والإكرام، جواد

(١) السباهية: هم الفرسان فى الدولة العثمانية، وهم الذين كانوا يقطعون الإقطاعات مقابل الخدمات العسكرية التى يقومون بها.

(٢) المنح الرحمانية ص١٩٣.

(٣) المنح الرحمانية ص١٩٣.

بَذول لم ينحن الهلال إلا ليكون نعلاً فى حافر جواده، ولا مدّت الثريا كفّ الخضيب إلا للتمسُّك بذيل إفضاله وإمداده، ولا فتحت الدُّوِىُّ أفواهها إلا لتنطق بمدحه أَلْسنة الأقلام، ولا حبّر الحبر بياض الطروس بسواد السطور إلا ليشير أن الليالى والأيام له من جملة الخُدَّام، طالما طوّق الأعناق أطواقًا من الإفضال والإنعام، كأنها أطواق الحمام، وكثيرًا ما أحسن إلى العلماء والصلحاء من جيران بلد الله الحرام، وجيران سيّد الأنبياء والرُّسُل الكرام، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وكُنْتُ ممّن شملنى برّه وإنعامه، ووصل إلىَّ فى أكثر الأيام إحسانه وإكرامه، فأطلق لسانى بشكره، وانطلق جنانى بالثناء عليه لإحسانه وبرّه، فخَلَّدْتُ ذكر محاسنه فى صحائف الكُتُب والدفاتر، ورقمت كرائم صفاته فى صفحات أوراق لا يخلقها الجديدان ولا يبليها الدهر الغابر، وكتبتُ باسمه الشريف تاريخًا حافلاً سمّيته البرق اليمانى ذكرت فيه أحوال اليمن من سنة تسعمائة، واستيلاء حُسَيْن الكردى وطائفة الجراكسة ثم اللوند إلى زمن الفتح العثمانى أولاً على يد الوزير سليمان باشا، ثم استيلاء الزيديّين جيوش مطهَّر بن شرف الدين ثم الفتح العثمانى ثانيًا على يد الوزير المعظم سنان باشا أدام الله تعالى نصره وإجلاله، وخلّد سعادته وإقباله، على سبيل التفصيل، واكتفيت بما ذكرته فى ذلك التاريخ عن إعادته هُنا فإنه يَرْوى الغليل، ويفصّل تلك الأحوال غاية التفصيل، وكنتُ صدّرت ذلك التاريخ بقصيدة طنّانة من نظمى الطنان، سارت بها الركبان، وتَلَقَّتها بالقبول أدباء علماء البُلدان، أحببت إيرادها ههنا لبلاغتها عند علماء البيان وفصحاء اللسان، تسابق ألفاظها ومعانيها إلى الآذان والأذهان، تسابُق أفراس الرهان، يُعَدُّ كل بيت منها بديوان، وتسحب كل كلمة منها أذيال البلاغة على سحبان، وهى هذه[1]:

لك الحمد يا مولاىَ فى السرّ والجهر

على عزّة الإسلام والفتح والنصر

---

(١) أوردها البكرى ص١٩٥ نقلاً عن المؤلف.

كـــذا فليكن فتح البلاد إذا سعت
له الهِمَمُ العُلْيَا إلى أشرف الذكـر
جنـــودٌ رَمَـتْ فى كَوْكَبَــان خيامهــا
وآخرُهـــا بالنيل مـن شاطئ مصر
تجرّ مـن الأبطـــال كـل غضنفــر
بصارمــــه يسطـو على مفرق الدهر
عســاكر سلطـــان الزمــــان مليكنا
خليفــة هــذا العصر فى البرّ والبحر
حمى حـــوزة الدين الحنيـفى بالقنــا
وبيض المواضـى والمثقّفـــة السُّمْـر
له فى سـرير الملك أصـل مُـؤثّلٌ
تلقـــاه عن أسلافـــه السادة الغُـرّ
ملـوك تسامـــوا للعـــلا وخـلائف
أولو العـزم فى أزمـانهم وأولو الأمر
شمـوسٌ بفَيـض النـــور تمحو غياهبًا
من الكفر منهـم يستمـدُّ ضيا البـدر
همـــوا ملئـوا عين الزمــــان وقلبه
فقرّت عيـــون العاليـــن مـن البِشر
هم العقـــد مـن أعـلى اللآلى منظّمًا
وسلطـانـنا فى الملك واسطـة الدرّ
شهنشـاه سلطـان الملـوك جميعهـم
سليـم كريـمٌ أصـله أطيـب النَّجْـر

عمـــــاد يلوذ المسلمـــون بظلّه
وسـدٌّ منيـع للأنـام مـن الكفـر
وحيـن أتاه أن قـــد اختلّ جـانب
مـن اليمـن الأقصى أصرّ على القهر
وسـاق لهـا جيشًا خميسًا عرمرمًا
يدكُّ فجاج الأرض فى السهل والوعر
لهم أســد شاكى السـلاح عرينه
طـوال الرمـاح السمهرية والبُتر
وزير عظيـم الشـأن ثاقـب رأيه
يُجَهّـز فى آن جيـوشًا مـن الفِكـر
يقـوم بأعبـاء الـوزارة قومـة
يشـدّ جيـوش الدين بالأيد والأزر
أياد لـه بالبـأس كاسـرة العِـدا
ولكنهـا بالجـود جـابرة الكَسْـر
به أمّـن الله البـلاد وطمّـن الـ
ـعباد وأضحى الدين منشرح الصـدر
سنان عزيز القـدر يوسف عصره
ألـم تره فى مصر أحكامـه تَجْرى
تدلّى إلى أقصى البـلاد بجيشـه
ومهّـد مُلْكًا قـد تمزّق بالشرّ
وشَتَّتَ شمـل الملحـدين وردَّهم
مثـال قـرود فى الجبـال من الذعـر

وقطع رءوسًا من كبار رءوسهم
لهم باطن السِّرحان والطير كالقبر
وكأن عصا موسى تلقّف كُلَّ ما
بَدَا من صنيع الملحدين من السحر
ولا زال فيهم عامل الرمح عاملاً
ولا بَرِحوا فى الذلّ بالقتل والأسر
وما يمنٌ إلا ممالك تُبَّع
وناهيك من ملك قديم ومن فخر
وقد ملكتها آل عثمان إذ مضت
بنو طاهر أهل الشهامة والذكر
فهل يطمع الزيدىّ فى ملك تُبَّع
ويأخذه من آل عثمان بالمكْر
أبى الله والإسلام والسيف والقنا
وسرّ أمير المؤمنين أبى بكر

فلما تمّ الفتح الخاقانى العثمانى، فى القطر اليمانى، عاد الوزير المعظّم، إلى بلد الله المكرّم، وحجّ حجّة الإسلام، وزار المزارات والمشاهد العظام، وصادف الحجّ الأكبر وكانت الوقفة الشريفة يوم الجمعة أفضل الأيام، وأثر ببلد الله الحرام، أنواع الخيرات والإنعام، وأحسن إلى أهل الحرمَيْن الشريفين ومن حضر فيهما من حُجَّاج الأنام، وقابل شرفاء مكة المشرفة أدام الله عزّهم وسعادتهم بالاعتزاز والاحترام.

فمن آثاره الخاصة به فى المسجد الحرام فرش حاشية المطاف بالحجر الصوان، وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف دائرة حول المطاف مفروشة بالحصا يدور بها دور حجارة منحوتة مبنيّة حول الحاشية كالإفريز لها، فأمر الوزير المعظم المشار إليه أن تفرش هذه الحاشية بالحجر الصوان المنحوت

ففرشت به فى أيام الموسم، وصار محلاً لطيفًا دائرًا بالمطاف من بعد أساطين المطاف، وصار ما بعد ذلك مفروشًا بالحصا الصغار كسائر المسجد، وهذا الأثر خاصٌّ به ذكره الله تعالى بالصالحات، وأدام له العزّ والسعادات.

ومنها: تعمير سبيل فى التنعيم أنشأها وأمر بإجراء الماء إليها من بئر بعيدة عنها يجرى الماء منها إلى السبيل فى ساقية مبنية فيما بينهما بالجصّ والنَّورة، وعيّن لها خادمًا يستقى من البئر ويصبُّ فى الساقية فيصل الماء إلى السبيل ليشرب منه ويتوضّأ به المعتمرون والواردون والصادرون ويدعون له بالنصر والتأييد.

وعيّن مصاريف ذلك من ريْع أوقاف له بمصر.

ومنها آبار أمر بحفرها بقرب المدينة الشريفة لقوافل الزُّوَّار فى وادى مفرّح وغيرها كثيرة النفع جداً.

ومنها قراءة ختمة شريفة فى كل يوم يقرأها ثلاثون نفرًا بمكة، وأخرى بالمدينة الشريفة، وعيّن لكلِّ قارئ جزءًا فى كل سنة تسعة دنانير ذهبًا، وكذلك لمفرق الأجزاء، وللداعى ولشيخ القُرَّاء وعيّن مصارف ذلك جميعه من أوقافه التى بمصر المحروسة عمّرها الله تعالى، وجعل ناظرها والمتكلّم عليها وعلى سائر ما عمله من الخيرات سيّدنا ومولانا شيخ الإسلام، قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام، صفوة سلالة آل النبىّ عليه أفضل الصلاة والسلام، بدر الملّة والدين السيد القاضى حُسَيْن الحسينى أدام الله عزَّه وإقباله، وضاعف سعادته وإجلاله، وكلّ هذه الخيرات باقية جارية إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

وأمّا فتح حلق الواد[1] وبلاد تونس الغرب فهى من أجلّ الغزوات العثمانية وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية الواقعة فى أيام السلطان الأعظم العثمانى، السلطان سليم خان الثانى، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له مغفرة جامعة، ومتعه بالنظر إلى وجهه الكريم، ومنحه لَذَّات جنة النعيم، وبيان ذلك أن

(١) انظر فى فتح حلق الواد: المنح الرحمانية ص٩٧.

سلاطين تونس الغرب من آل حفص لمّا ضعفوا ووهنوا ووقع بينهم الاختلاف، صار بعضهم يلتجئ إلى نصارى الإفرنج ويأتى بجنود الكفرة يستعين بهم على أخذ تونس.

وصار الفرنج يقاتلون من فى تونس من المسلمين ويقتلونهم ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البقاع ويواصلون بجنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولّون من تحت أيديهم سلطانًا من بنى حفص سلاطين تونس قديمًا على بلاد تونس ومن بها من المسلمين، إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعمّ أذاهم على المسلمين، وانفردوا عنهم وبنوا قلعة عظيمة محكمة الإتقان، مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له حَلْق الواد، كأنّه بناءُ شدَّاد، أو وضع العادّيين من قبائل عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وشحنوها بالأبطال الباطلين، من شجعان النصارى المشركين، وملئوها بآلات الحرب والقتال.

وصارت النصارى تكمن فيها للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب فى البحر على بُلدان المؤمنين الموحّدين، ويقطعون الطريق على المسافرين، ويأخذون كل سفينة غصبًا، وعم أذاهم المسلمين قتلاً وأَسْرًا ونهبًا وسَلْبًا، إلى أن تَعَدَّى ضررُهم على طوائف أهل الإسلام، وزاد فساد أهل الصليب على ضعفاء المسلمين من الأنام، وكبير ملوك النصارى الآن صاحب إشبيلية من جزيرة الأندلس أعادها الله تعالى دار الإسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام، يسمّونه العوامُّ إصبانية تحريفًا لكلمة إشبيلية، جهّز جيشًا كثيفًا لأخذ تونس ووَالَسَ على ذلك سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى قابله الله تعالى على سوء فعله بما يستحقّه، فأخذ النصارى مملكة تونس، ووضعوا السيف فى أهلها فقتلوا الرجال وسبوا الأولاد والنساء والأطفال وباء أحمد المذكور بإثمه، واسودَّ فى صحائف الأيام والليالى ديباجة وجهه واسمه، وانقلب خاسرًا مدحورًا، وانخلع عن ربقة الدين وازداد خيبة وكفورًا، ونفرت قلوب المسلمين منه وزادت نفورًا، وكيف لا يكون ذلك وقد استعان

بملّة الكفر على الإسلام، واستدعى عبدة الصليب والأصنام، ينتصر بهم على أهل ملّة محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام، وامتهن دار الإسلام تونس بأقدام أولئك الكفرة اللئام، والاعتصام بالله الكبير المتعال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فانتشرت هذه الأخبار المدهشة، والأنباء المظلمة الموحشة، إلى أن وصلت أبواب سلطان سلاطين الإسلام، ظلّ الله الممدود على مفارق الأنام، مالك صَهْوة الملك من الذروة إلى الغارب، ملك الملوك من مشارق الأرض والمغارب، واسطة عقد ملوك آل عثمان، المشمول بشمول الرحمة والمكرمة والغفران، من الله الكريم المنان، السلطان سليم خان، ابن السلطان سليمان خان، سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان، وأبقى السلطنة فى عقبه إلى انتهاء الزمان.

فلمّا طرق سمعه الشريف، هذا الحادث الرجيف، وعلم ما أصاب أهل الإسلام، من هذه المصائب العظام، والامتهان الذى قصم الظهر وأوْهن العظام، استشاط سخطًا وغضبًا، واضطرمت نار حميّته وتَأجّجت لهبًا، وتحرّكت العصبية الإسلامية، والتهبت نيران الحميّة العثمانية، وقام وقعد، وأرغى وأربد، وأبرق وأرعد، وهدّد وأوْعد، وخاطب الوزراء العظام، والبكلاربكية الكبراء الفخام، وقال: من يقدم منكم على نصرة الإسلام، وإذلال عبدة الصليب والأصنام، ويستنقذ من أُسر من المسلمين بيد أولئك النصارى الطغام، ويخرج من عُهْدة الكفار الفجرة اللئام؟ فبادر الوزير المعظم، والليث الغشمشم صاحب السيف والقلم، فاتح ممالك اليمن الأيمن المكرم، أبو الفتوحات سنان باشا المفخم، لا زالت ألوية نصره منشورة الذوائب، مشرقة كالشمس يغشى ضوءُها المشارق والمغارب، صاعدة إلى أفق السماء حتى تزاحم مناكب الكواكب، وقال: أنا لسدّ هذه الخَلّة أنا لها، أفرج كربتها وأفتح مقفلها، وأصلح خللها وأزيح عِللها، ولم تدّخرنا السلطنة الشريفة الخاقانية، ولا ربّتنا العواطف الكريمة العثمانية، إلا لنبذل أرواحنا

وأموالنا فى مثل هذه الحوادث، وندفع عن المسلمين ما يصابون به من المصائب الكوارث، فقابله السلطان الأعظم بالشكر منه والثناء عليه، وشرّفه بالالتفات الشريف السلطانى إليه، وجعله سردار العساكر المنصورة، وأمره بالتوجّه إلى قهر النصارى المقهورة، وأمر أن يتوجّه معه لمساعدته ومعاونته، ودفع ملالته وسآمته، وضبط العساكر البحرية، وترتيب السفائن الحربية قابودان الباب العالى، فارس ميدان البحر السابق إلى قلّة أبراج المعالى، الأسد الضرغام، والليث القمقام، والصارم الصمصام، أمير الأمراء العظام، حضرة قلج على قابودان[1] باشا، يسّر الله له من الفتوحات ما شاء.

فشرَعَا فى أخذ أسباب السفر، وأَخَذَا معهما من أمراء السناجق وشجعان العسكر كل أسد غضنفر، وكل باسل معقود بناصيته أسباب النصر والظفر، ممّن له فى حرب البحر اليد البيضاء والمعرفة التى يتصرّف بها فى الماء والهواء، وشحنوا مائتى غراب[2] تطير بأجنحة القلاع، وتهدّم بما فيها من المدافع محكمات الحصون والقلاع، وعدّة من المؤنات الكبار لحمل الأثقال، ورفع الأحمال الثقال، وشيل مكاحل النحاس لحطم الثغور، وهدم السور والجسور، إلى الأساس، وكثرة التخويف والترهيب وشدّة القوة والباس.

وكان يوم بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى يومًا عظيمًا مشهودًا، وساعة مباركة أظهرت يُمْنًا وبركةً وسُعُودًا، وكان الجمع المنصور جمعًا مباركًا مسعودًا، وذلك فى غرّة شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

وركب الوزير المعظم سردار العساكر حضرة الباشا سنان والقابودان، والعساكر المنصورة بنصر الله الملك الديَّان، ثبج البحر كأنهم طوفان فوق طوفان، وطارت بهم الأغربة على وجه البحر أقوى طيران، وتَلَتْ أَلْسنة

---

(١) قابودان: معناه أمير البحر، استعمله العثمانيون منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى مركبًا مع غيره بلفظ: قابودان باشا كلقب أطلقوه على قائد الأسطول.

(٢) غراب: من أنواع المراكب البحرية سمى بذلك لأن مقدمته تشبه رأس الغراب.

الغزاة[1] وقال: اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، فوَصَلوا إلى ليمان ناوارين واستمرّوا سائرين فى البحر حتى وصلوا إلى ماللو كليسان من مملكة البندقية، فوصلوا فى يوم الخميس لخمس مضين من شهر ربيع الأول ليمان الخير، واستقّروا بها ليلة الجمعة وأصبحوا متوجّهين والسعد يخدمهم والنصر والفتح والظفر يرافقهم ويقدمهم، وقد عبروا بسفائنهم إلى العُمَّان وما أمكن لغيرهم من العساكر عبور العُمَّان بهذه السفائن الكثيرة خوفًا من تصادُمها عند شدّة تموُّج البحر، ولكن الله تعالى يسلم من أراد لا دافع لمراده ولا رادَّ وهو على كل شىء قدير.

فساروا تارة بالقلوع وتارة بالكورك على وجه ذلك البحر الوسيع إلى أن ظهرت لهم فى اليوم الثامن جبال قلاورية، واستمرّوا كذلك إلى أن وصلوا وقت الظهر فى اليوم التاسع إلى طُبْرق حصارى وهو حصار منيع للكفار على ساحل البحر، فلما وصلت العساكر المنصورة الإسلامية إلى ذلك المكان حاربهم الكفار الملاعين فدهكهم العسكر المنصور دهكًا، ودكّوا من تحت أرجلهم الأرض دكًا، فهربت الكفار إلى قلعة حصينة تسمّى نحيه.

ووقع قتال عظيم استُشْهد فيه مَنْ رُزق سعادة الشهادة، وأعطاه الله فى جهاده الحُسنى وزيادة، منهم كتخداء حضرة القابودان سنجق قره جه أيلى محمد بك، نزل من سفينته مشتاقًا إلى الجهاد فى سبيل الله، فأصابته بندقة فى خدّه نفذت من الجانب الآخر، واستمرّ صاحب فراش خمسة أيام ثم تَلَتْ عليه الملائكة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] فانتقل إلى رحمة الله شهيدًا، ومضى إلى دار الآخرة سعيدًا.

ثم رمى وقت المغرب مدفع لإعلام الغُزاة بالعود إلى سفائنهم للمسير، فحضروا وركبوا فرُفعت القلاع وصاروا يسيرون تارة برفع القلاع وتارة بالكورك إلى أن وصلوا فى اليوم الرابع عشر إلى جزيرة مسّينة، فاستقرّ بها

(١) فى ل: «القراة» والمثبت من م.

قليلاً عسكر المسلمين ثم ساروا فلما وصلوا إلى محاذاة حصار سرافون حصلت فرتونة فى البحر تفرّقت بسببها السفائن من الضحى إلى آخر النهار، ثم اجتمعت وقت العشاء فى محلّ يقال له كير، ثم مرّوا بقُلل يان فحوصرت وهُدمت قلعتها وقتل من بها من النصارى، ثم ساروا فلاحت قلعة أولا ووصل إليها بعض العسكر المنصور ونهبوا ما وجدوا بها من الذخائر وقتلوا من ظفروا به من النصارى وعادوا إلى سفائنهم، وصاروا ينزلون لأجل السقية كل يوم إلى جانب من ساحل صجلية، وكلّما وصلت يدهم إليه من نهب وغارة وقتل وأسر لطائفة الكفار بادروا إليه وأخربوا قُراهم ودورهم وبساتينهم وعادوا إلى سفائنهم.

فاجتمع كلُّ من فى ذلك الساحل من النصارى من فارس وراجل فصاروا عسكراً وأقدموا على قتال من ينزل إلى البرّ من المسلمين، فخرج إليهم من السفائن بعض البحارين والكوركجية[1] وبعض من فى نيته الجهاد فى سبيل الله فقاتلوا الكفار وهزموهم وقتلوا منهم خلقًا كثيراً وفرّ الباقون، ولم يعهد للملاعين مثل هذه الهزيمة والخسران وذهاب أرواحهم وأموالهم وأسر أولادهم ونسائهم قبل الآن، ولعذابُ الآخرة أشدُّ وأبقى.

ثم أطلق المسلمون النار فى تلك السواحل وأحرقوا أشجارها ودورها وقصورها وعجلوا بأهلها إلى نار جهنّم وساءت مصيراً.

وفى اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأول ظفر عسكر الإسلام بسفينة للنصارى مشحونة بالقَمْح كانت متوجّهة إلى بعض قلاعهم، فاغتنم المسلمون ذلك، وكان أخذُها فالاً حسنًا للمسلمين.

وفى اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور وصلوا إلى جهودا واسى وطاب الريح للمسلمين فوصلوا إلى قلعة خراب فى أرض تونس قريبًا من قاليبة بُورنى وهى على ثمانية عشر ميلاً من مدينة تونس، فزينت السفائن والأغربة

(١) الكوركجية: طائفة من عمال السفن كانت فى العهد العثمانى تعمل فى مجال نظافة مراكب الأسطول.

بالرايات المصبوغة ألوانًا إظهارًا لهيبة الإسلام وعُنْوَانًا للعساكر المنصورة العثمانية، فأَرْسوا فى اليوم الرابع والعشرين فى جزيرة حلق الواد ونزلت العساكر المنصورة السليمية ونصب أوطاق حضرة الوزير المعظم والقابودان المكرم على مسافة لا تصل المدافع من قلعة حلق الواد إليها ونزّلوا المدافع الكبار التى إذا رمى بها تزلزلت الجبال وتهدمها وتخرب الأطواد الكبار وتحطمها، وشرعوا يتقربون قليلاً قليلاً إلى القلعة ويبنون لهم متاريس يتترّسون بها ويسوقون الأتربة أمامهم ويتستّرون خلفها ويحفرون خنادق ينزلون فيها كَيلا تصيبهم المدافع ويتقدّمون ويدنون من القلعة على هذا الأسلوب إلى أن أحاطت العساكر المنصورة بقلعة حلق الواد، وتقدّموا بالبنادق وآلات الجهاد، ونصبوا بقرب القلعة المنجنيقات والمدافع، ووُجّهت إلى صوب الكفرة أفواه المكاحل الكبار والمصانع، وبرز حضرة الوزير المعظم سنان باشا محفوفًا بنصر الله يخوض هَوْل الموت وهو يراه محتسبًا نفسه فى سبيل الله معتمدًا على عون معين نصير تسجد لعظمته الجباهُ، وأقدمت العساكر المنصورة بصدق اعتقادها وثبتت النصارى بغلظ أكبادها وشدّة أحقادها، وتراموا بالمدافع الكبار التى هى من أشدّ الصواعق، وأخطف للأسماع والأبصار من الرُّعُود والبوارق، تخطف ما صدفت من النفوس والأرواح، وتمزّق ما صدمت من الهياكل والأشباح، وتفكّك اللحم عن العظم، وتُذيب الشحم وتسيل الدم، والعساكر المنصورة مقدمون على هذه الأهْوال، ثابتون ثبات الأطْواد والجبال، على الحرب والقتال، والجلاد مع المشركين والجدال، إذ وصل الخبر بوصول بكلربكى تونس المولّى عليها من قبل السلطنة الشريفة العثمانية السليمية أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء المجاهدين العظام، حَيْدَر باشا وكذلك بكلربكى طرابلس الغرب أمير الأمراء العظام، كبير الكبراء الكرام، ذو القدر والعظمة والاحتشام، مصطفى باشا أيّدهما الله تعالى بالنصر والتأييد، وظفّرهما على كل كافر عنيد.

وكانا وصلا قُبَيْل وصول العمارة الشريفة السلطانية من البرّ إلى مقدار

نصف يوم عن تونس بقصد محاصرتها وأخذها، فلمّا علم البكلربكيان بوصول العمارة السلطانية إلى حلق الواد، واشتغال العسكر المنصور السلطانى بالجهاد، وَصَلاَ ليلاً بالخفية مع قليل من الغلمان إلى وطاق سردار العمارة المنصورة الوزير المعظم الباشا سنان واجتمعا به وفرح كل منهم كمال الفرح وحصل لهم الاطمئنان وطلبا منه الإمداد والإعانة على أخذ تونس، وما أمكن الوزير المعظم سنان باشا أن يتوجّه معهما بنفسه فأمر طائفة من أمرائه وعيّن نحو ألف نفر من التوفكجية[1] وبعض المدافع الكبار والضربزانات أن يتوجّهوا مع البكلربكيّين إلى محاصرة تونس وأخذها من النصارى الفجار، وأرسل معهما من أمراء السناجق فخر الأمرء العظام إبراهيم بك ثم سناجق مصر المحروسة، وسنجق قرشتى محمود بك، وسنجق قره حصار بكر بك، ومقدار ألفى نفر من طائفة كوكللو[2] مع أغاهم حبيب بك، فتوجّهوا فى الحال مع حَيْدَر باشا ومصطفى باشا وأحاطوا بتونس.

وكان سلطانها الموالس مع النصارى أحمد الحفصى ومن معه من النصارى رأوا أنهم عاجزون عن حفظ تونس لسَعَتها، ورأوا أن قلعتها أيضًا خراب متهدّمة لا تصونهم، فخرجوا من تونس إلى رملة بقربها يقال لها قوملودكز يعنى بحر الرمل، وعملوا بها حصارًا من الخشب حشوه بالرمل والتراب وتحصّنوا فيه وكانوا نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كفار ومرتدّين ومَرَدة من النصارى المخذولين، وشحنوا هذا الحصار بآلات الحرب والمدافع والذخائر ونحو ذلك.

فلمّا خلتْ تونس من أعداء الدين، فتحها عساكر المسلمين، وضبطوها وحصّنوها، ثم برزوا إلى قتال أولئك الملاعين وحاصروهم فى قلعتهم التى أحدثوها وأحكموها بالألواح والأخشاب والطين، وأرسلوا خبر ذلك إلى سردار عساكر المسلمين الوزير المعظم سنان باشا، فأرسل لنصرتهم وإمدادهم

---

(١) التوفكجية: صنف من العسكر العاملين فى الجيش العثمانى، وهم من المشاة المسلحين بالبنادق.

(٢) كوكللو: بمعنى المتطوع.

وإعانتهم القابودان المعظم والبكلربكى المفخم قلج على باشا المكرم، فتوجّه بطائفة من المسلمين من العساكر المنصورة إلى إعانة بكلربكى تونس حَيْدَر باشا وبكلربكى طرابلس الغرب مصطفى باشا ومن جهّز معهما من العساكر سابقًا وهم محيطون بالقلعة التى تحصّن بها الكفار الأشقياء والعُربان المرتدُّون.

فرأى قلج على باشا صعوبة أخذ القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة فطلب عسكراً آخر وعدة مدافع أخرى من الوزير المعظم سنان باشا فأرسل إليه ألف يكيچرى[1] وصمصونجى باسى، ومن سلحدارية الباب العالى على آغا، وجهّز معهم ثمانية مدافع وستة ضربزانات ولحقوا بالقابودان أورج على باشا، وأحاطوا بقلعة الكفار وبنوا المتاريس من كل جانب، ومع ذلك كانت الكفرة الملاعين ومن ارتدّ من عُربان تونس فى غاية الكثرة والقوة، ومعهم الخيول فخرجوا من القلعة مراراً وهجموا على عساكر المسلمين عند المتاريس فى جهة من جهات القلعة وقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً وعادوا إلى قلعتهم، واستشهد فى ذلك كثير من المسلمين وانتقلوا إلى رحمة الله تعالى فى أعلى علّيين[2].

فلمّا بلغ حضرة الوزير المعظم ما فيه عساكر المسلمين من الشدّة جاء بنفسه إليهم، فإن المسافة قريبة وعساكر السلطنة محيطة بقلعة حلق الواد والحرب قائمة على حاله، فتوجّه حضرة الوزير إلى تلك القلعة المحصورة بقرب تونس وشاهدها ووزع على جوانبها عساكر المسلمين وقوّى جأشهم وعيّن فى كل موضع طائفة وأشار على القابودان والبكلربكية بما رأى فيه الصواب وطمّنهم وشد قلوبهم وعاد من يومه إلى حلق الواد لاحتياج عساكر المسلمين إليه فى هذه الجهة أيضًا.

واستمرّ كل من الفريقين فى مجاهدة الكفار، وهم على الثبات والقرار،

---

(١) يكيچرى: بمعنى العسكر الجديد.

(٢) المنح الرحمانية ص١٩٩.

لا يسأمون من مصادمة النار، ولا يخافون من الموت لأنهم مقدمون على جنة الخلد ومُلك لا يَبْلَى، طالبون درجة الشهادة من الله الأعلى.

ووصل فى أثناء هذا بكلربكى الجزائر سابقًا أمير الأمراء العظام أحمد باشا لإعانة عسكر الإسلام، وأقبل على حضرة الوزير المعظم واستأمر لما يأمره به فأعطاه عدّة من المدَافع وعيّن له جهة الجنوب من حلق الواد فتوجّه إليها وبنى المتاريس فيها وجاهد فى الله حقّ جهاده، وأقدم على قتال الكفار وألقى إلى الحرب مقاليد قياده، فوصل العسكر المنصور إلى حافة خندق الكفار بعد أربعة عشر يومًا وبنوا على حافته المتاريس، وكان الكفار قد نقبوا تحت الأرض نقبًا طويلاً وصلوا به إلى موضع كان كمرك خانه[1]، وفيه قلّة بُرْج يصلح للتحفُّظ والتحصُّن فيه، فوصلوا إليه من تحت الأرض وملئوه من الرجال وآلات الحرب، ففطن المسلمون لذلك وكان قريبًا من الجانب الذى فيه حضرة الوزير، فتوجّه إليه بنفسه النفيسة ووقع فيه حرب شديد، وأُخذت القلة وقُتل من فيها من النصارى المخذولين، فأرسل حضرة الوزير بالليل من يقيس عمق الخندق الذى وصل إليه العسكر المنصور فكان عمقه ستّين ذراعًا بذراع العمل وقعره متّصل بالبحر مملوء بماء البحر، فتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأى فى ذلك، فما وجدوا لذلك حيلة غير أن يملئوا الخندق بالتراب وتُبنى عليه المتاريس، فأمر الوزير المعظم سائر العسكر بذلك فشرعوا فى نقل التراب من خلف المتاريس، وباشر حضرة الوزير المشار إليه ذلك ونقل بيده الشريفة التراب، ابتغاء لمرضات الله العزيز الوَهَّاب، ونصرة لدين الله وتأييدًا لملّة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ورأى الأمراء ذلك فبادروا بأنفسهم إلى نقل التراب، ورأى العسكر المنصور ذلك فهمّوا غاية الاهتمام وأقدموا نهاية الإقدام وحملوا التراب كأمثال القباب، ورموا بها فى الخندق إلى أن امتلأ وزاد فى الارتفاع، فبنوا المتاريس فوق ذلك إلى أن اعتلوا على

(١) كمرك: كلمة تركية معناها: جُعل يؤخذ على البضائع الواردة من البلاد الأخرى: يقابلها: مكس، دخلت العربية منذ العهد العثمانى، والبعض ينطقها اليوم بلفظ: جمرك.

الحصار وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، فصارت مدافع المسلمين تصل إلى وسط قلعة الكفار، وتقتلهم وتحرقهم بالنار، وتسوقهم إلى جهنّم وبئس القرار.

ووصل فى هذا الأثناء بكلربكى الجزائر المتولّى عليها إذ ذاك أمير الأمراء العظام رَمضان باشا ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، واجتمع بحضرة الوزير المعظم وطلب منه خدمة يؤديها فأرسله بمن معه من عسكر الإسلام إلى إعانة المسلمين الذين حصروا الكفار بالقلعة التى بقرب تونس، فتوجّه إليها ونزل فى جهة من جهاتها وحطّ عليها مع من هناك من البكلربكية والأمراء، والغُزاة والمجاهدين والكبراء، واستمرّ حضرة الوزير فى محاصرة قلعة حلق الواد، والاستيلاء على من فيها من أهل الكفر والعناد، وأقدم المسلمون على الدخول إلى الحصار، لمّا شاهدوا وَهْن الكفار، وحمل الوزير المعظم بمن معه من الأبطال، حملة واحدة تزلزلت الجبال، وحمل من فى الجهات الثلاث من العسكر والأمراء والرجال، فدخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال، لست مضين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ووضعوا السيف فيمن وجدوه بها من الكفار الفجار، وساقوهم بالنار إلى عذاب جهنّم وبئس القرار، وغنموا ما وجدوه بها من آلات الحرب ومن الذخائر وغير ذلك، واستؤسر صاحب القلعة كبير النصارى المخذولين، وكذلك أُسر سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى وحبسهما وقيّدهما حضرة الوزير وأمر بقتل سائر من وُجد من النصارى والعرب المرتدّين.

وفرح بفتح هذا الحصن الحصين، كافّة أهل الإسلام والمؤمنين، واستبشروا بهذا الفتح والنصر المبين، فإنه يُعَدُّ من أجلّ فتوحات الإسلام، وأعظم التأييدات لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكانت هذه القلعة من أحكم القلاع التى أحكمتها النصارى اللئام، وأقواها فى المكنة والاستحكام، وأشدّها ضررًا على أهل الإسلام، ومن عجيب الاتفاق أن هذه القلعة المنكوسة بنَتَهْا النصارى المخذولين فى سنة

ثمان وثلاثين وتسعمائة، وأكملوا استحكامها فى ثلاثة وأربعين سنة، وافتتحها حضرة الوزير المعظم سنان باشا فى ثلاثة وأربعين يومًا من أيام محاصرتها بعدد السنين التى أُحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة.

فلمّا تمّ هذا الفتح المبارك رأى حضرة الوزير أن ترميمها وإعادتها وحفظها بالعسكر والآلات الحربيّة يحتاج إلى مُؤنَة كبيرة، وخزائن من الأموال كثيرة، مع قلّة جَدْوَاها، لبُعْدها عن الباب العالى وطول مداها، فرأى أن الأولى هدمها وتخريبها حتى لا تصير للنصارى المخذولين مكمنًا ولا مأوى يتحصّنون فيه، فأمر بهدمها، فهدموها حجراً حجراً وتركوها خبراً لا أثرًا، وأعملت المعاول فى رأسها، إلى أن وصلوا إلى أساسها، فصارت طللاً من الأطلال، ودمنة يلعب فيها هبوب الصبا والشمال، ولا يسمع فيه ندا أو صدا، إلا صياح بوم أو صدا، ولم يبق بها أنيس، إلا اليعافير والعيس.

وأرسل حضرة الوزير المعظم بشائر النصر والفتح المتوالى، إلى جهة الباب الشريف العالى، وإلى سائر بلاد الإسلام، ليأخذ المسلمون حظهم من هذا البشر التامّ، والفرح الشامل العامّ، ويفرح المؤمنون بنصر الله والملائكة الكرام، ويدعوا بدوام دولة هذا السلطان الأعظم، نصره الله وخلّد مُلكه على الدوام.

وهــذا دُعاء لا يردُّ لأنه يزان به كل الورَى والممالك

تراه بلا شكّ أجيب لأنه إذا ما دعونا أمّنته الملائك

وتوجّه البشير كأنه الصُّبح الصادق، ينشر على الخافقين رايات النصر والخوافق، ويملأُ برايات الفرح أقطار المغارب والمشارق.

وكوكب الصُّبح نجّابٌ على يده مخلَّقٌ تمــلأُ الدنيــا بشــائره

ثم لمّا فرغ حضرة الوزير مَأْرَبَهُ من حلق المواد، وفعل فى تلك الوِهاد والمِهاد، والأغوار والأنجاد ما أراد، توجّه بعساكره المنصورة إلى تونس، لتطمئنّ بطَلْعته الغرَّاء من بها من عسكر المسلمين وتونس، فوصل إليهم وهم محاصرون قلعة النصارى المخذولين، مجاهدون مجتهدون فى أخذ أولئك

الملعونين، ففرح بوصوله البكلاريكية الذين يحامون لنُصرة الدين، واشتدّ أزْرهم وقوى جأشهم على قتال المشركين، وقد نشأُوا على الطعان والقراع، كما نشأ الأطفال على الرضاع، وضروا بدماء الكفار ضراوة الأسود والسباع، بما تفترسه من الصيد وهى جياع، وحمل بإقدامه حضرة الوزير المعظم، على من فى القلعة حملة الأسد الغشمشم، وتسابقت العساكر المنصورة إلى استئصال أعداء الدين سبق السّيل الغطمطم، وتعلّقوا بأطراف الحصار، وصبروا على حرّ السيف والنار، واستشهد كثير من المسلمين الكرام، وقُتلوا فى سبيل الله وهم أحياء لا أموات عند الله فى دار السلام، واستمرّ عساكر المسلمين على الإقدام، على الموت الزُّؤَام، وحدّ السيف والحسام، إلى أن دخلوا القلعة ونصبوا الرايات الشريفة على أعلى القلعة فأقدمت بقية العساكر الإسلامية وهجمت على الدخول إلى القلعة فدخلوها ووضعوا السيف فى الكفار عبدة الصليب وقتلوا منهم ثلاثة آلاف دارع مغلغل من فرقه إلى قدمه فى سابغات الحديد، ورمى نفسه الباقون من أعلى القلعة إلى أسفلها وهم زهاء خمسة آلاف نفس نزلوا على أقدامهم فى الرمل وهربوا مقدار رمية سهم أو سهمَين، وشرعوا فى التترُّس بأتربة ورمال أرادوا أن يتحصّنوا بها والمسلمون مشغولون بقتل من بقى فى القلعة ونهب الأمتعة والأسلاب والأسباب، فوُجد بها أخشاب وألْواح أعدَّها الكفار لإتقان القلعة وإحكامها وبارود كثير ومدافع ولبوسات وآلات الحرب وبكسماط كثير لأزْوادهم.

وكانت القلعة بسبب العجلة غير محكمة البناء وأعجلتهم العساكر المنصورة السلطانية الإسلامية عن إتمام إتقانها وإتقان استحكامها، فلو تأخّر ورود العساكر السلطانية عنهم فى ذلك العام لكانوا أتقنوا القلعة إتقانًا قويًا، وكان لا يقوى عسكر الإسلام على فتحها بعد ذلك، ولكن خذل الله تلك الطائفة الملعونة المعكوسة أيْنما ثقفوا بوصول حضرة هذا الوزير المعظم بهذا الخميس العرمرم فى ذلك العام قبل استيفاء استحكام القلعة غاية الإحكام، وكان

ذلك بيُمن سعادة طالع السلطنة الشريفة العثمانية وحسن اهتمام هذا الوزير المعظم ولطف تدبيراته العلية ودقّة آرائه الثاقبة الجلية.

ثم أمر حضرة الوزير أن تستعقب العساكر الإسلامية أولئك الهاربين من الكفار فتبعوهم ووجدوهم قد شرعوا فى عمل مكان يتحصّنون فيه فهجموا عليهم هجمة واحدة، فتيقّن الكفار أن لا مفرً لهم ولا محيص فقاتلوا أشدّ القتال، وقاتلهم المسلمون بالنصال، وصار الوجه فى الوجه والناب فى الناب، والسيوف المسلولة من القراب، تغوص فى الرقاب، والخناجر تدقّ فى اللباب والحناجر حتى سالت الدماء كالسيل العُباب، إلى أن أنبت كافور تلك الرمال شقيقًا، وصيّر أحجار الفلاة عقيقًا، وضرب النقع فى السماء طريقًا، وجند الله على كل حال هم الظافرون، والكافرون هم الصاغرون، وصبّ من دماء أولئك الأرجاس ما نجس به البحر على طهارته، والبرُّ على سعته والرمل على غزارته، وقُتل الكفار عن آخرهم قتلاً ذريعًا، وشكر المسلمون ذلك لله عزَّ وَجَلَّ صنيعًا، وانتصر على النصارى أهل ملّة الإسلام، الذى بعث الله به رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، إلى كافّة الأنام.

وعاد حضرة الوزير المعظم ظافرًا منصورًا، غانمًا مسرورًا، مثابًا مأجورًا، وغنمت العساكر المنصورة السلطانية، والجيوش الموفورة الإيمانية، ما تكِلُّ عن حَصْره أناملُ التحرير، وتضيق عن ذكره أدراج الأساطير، وجهّزت البشائر إلى الأبواب الشريفة السلطانية، والأعتاب المنيفة العثمانية، وتطايرت أخبار هذه البشارة إلى سائر المسلمين فى الآفاق، تخفق على الخافقين أجنحة السرور والبشر الخفاق، ما بين حدود الغروب والإشراق.

ولولا لطف الله تعالى بأهل الإسلام لكان البلاء عامًا على سائر بلاد المسلمين، فإن مولانا السلطان الأعظم الأفخم سليم خان لو لم يهتمّ بدفع هذه الكفار الملاعين لكانوا يتسلّطون على أخذ تونس وأخذ الجزائر كلّها وكانوا يحكّمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصارها غاية الإحكام، وكانت ترتدّ عن الإسلام عُربان المغرب وتتقوّى الكفار الفجار على أخذ

مصر وغيرها من ديار الإسلام، لا بلّغهم الله ذلك المرام، وأنزل عليهم الخزى والخذلان والنكال إلى يوم القيام.

وقد أعان الله سلطان الإسلام، لدفع أولئك الكفرة الطغام، ومزّقهم كل ممزّق بالسيف والسنان والحسام، وشتّت شملهم ومزّق جمعهم فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك، فالله تعالى يشكر لتأييد الإسلام صنيعَ هذا السلطان الأعظم السلطان سليم خان، صاحب هذه الهمّة العالية والقوّة والأيادى الحسان، ويجازيه عن الإسلام والمسلمين خيراً دائم الفَيَضَان، ويشكر همّة هذا الوزير المعظم العالى الشأن، على نصرة أهل الإيمان، ويجزيه أعظم جزاء على هذا الفتح العظيم بحدّ السيف والسنان.

وكان هذا الفتح الأخير فى يوم الخميس المبارك لخمس بقين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وقُتل فى القلاع الثلاث، من الكفرة الخباث، عشرة آلاف مقاتل ساقهم الله تعالى إلى النار، وقد استشهد من الغُزاة الأمجاد والمجاهدين الأنجاد ما يوازى عشرة آلاف غازٍ، ومن أعيان أمراء السناجق من أمراء الأكراد خضر بك وسنجق ابنه بختى مصطفى بك وسنجق مملكة مِدلو پرويز بك وسنجق بورك مصطفى بك وسنجق أولونية أحمد بك وسنجق ترخانه بايزيد بك وسنجق إسكندرية صفر بك وكتخداء الينكچرية فرهاد كتخداء ورأس زمرة اليايا[1] وكثير من الزُعماء وأرباب التِّيمار[2] وغيرهم عدّة عديدة، وأعطى حضرة الوزير الأمان لطائفة من الكفار رأى فى ذلك مصلحة توازى زهاء مائتى نفر برزوا فى أمان حضرة الوزير وأخبروه بأمور مهمّة كان يريد الاطّلاع عليها، منها أن عندهم من المعلّمين الأستاذين فى عمل الطوب الكبار التى يعجز جميع الكفار عن عمل مثلها،

(١) يايا: طائفة من الجند، كانت قبل تشكيل فرقة الانكشارية، وكانوا جنوداً دائمين يتاقضون راتبًا، وفى أثناء الحرب كان الواحد منهم يتقاضى يوميًا آقچتين، أما بعد الحرب فينتشرون فى بلادهم ويشتغلون بالزراعة.

(٢) أرض زراعية كان سلاطين العثمانيين يمنحونها لمن يتعهدون بتقديم عدد من الفرسان للدولة عند قيام الحرب، وكان عدد هؤلاء الفرسان على حسب ما تغل هذه الأرض.

مائتى نفر وخمسة أنفار ممّن لا نظير لهم فى هذه الصنعة فآمنهم وطلبهم وأخذ بخاطرهم وأعطاهم الأمان على أنفسهم، وشرط عليهم أن يسبكوا دائمًا النحاس ويجعلوها مدافع كبارًا، ويعمل لهم علوفة وتُوضع فى أرجلهم القيود ويكفل بعضهم بعضًا فرضوا بذلك وطلبوا الأمان على هذا الشرط.

فكساهم الوزير وكتب لهم علوفات على حسن مراتبهم وصاروا من خُدَّام الترسخانة[1] السلطانية موكّلاً عليهم من يحفظهم ويتيقّظ لهم ويستخدمون فى الخدم السلطانية ويسبكون النحاس للطوب الكبار والمدافع العظام.

وظفر حضرة الوزير المعظم فى قلعة حلق الواد وقلعتَىْ تونس المأخوذتَين بمائتَىْ مدفع وخمسة مدافع كبار، واستولى عليها كلّها وترك فى حصار تونس منها خمسة وثلاثين مدفعًا لحفظ تونس من الكفار الفجار، وأرسل مائة وثمانين مدفعًا من أكبر المدافع العظيمة إلى الباب الشريف السلطانى ليستعان بها على قتال الكفار الملاعين، إذا جهّز عليهم العمائر فى كل حين.

ثم لمّا فرغ حضرة الوزير المعظم الكبير، من هذا الفتح العظيم والمغنم الكثير، أنعم على من فى ركابه الشريف من الأمراء والكبراء والبكلاربكية وسائر الزُّعماء وأرباب التيمار وبلوكات العساكر المنصورة وأرباب الجوامك والعلوفات بالترقيات العظيمة والمناصب الكبيرة، كل أحد بمقدار سَعْيه واستحقاقه ومرتبته، وعرض ذلك على سرير السلطنة الشريفة، وكان مقدارًا كبيرًا من الخزائن العامرة، فقوبل جميع ذلك بالقبول، ووقعت مواقع الإجابة فى المأمول والمسئول، وذلك فى مقابلة ما بذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله وجاهدوا فى الله حقّ جهاده ونصروا المسلمين والإسلام، وأنعمت السلطنة الشريفة على حضرة الوزير المعظم بأنواع الإنعامات السنيّة، والترقيات الكثيرة العلية، والخلع الفاخرة البهيّة، والتشريفات الزاهرة السلطانية، فى مقابلة سعيه فى نصرة الدين، وبذل أمواله للغُزاة والمجاهدين،

(١) ترسخانة: بمعنى دار المسيحيين، لأن هذا الموضع كان فيه معقل الأسرى المسيحيين، وأمام هذا الموضع أقيمت مصانع السفن وما يتبعها من إدارات.

وأخذ ثأر المسلمين من الكفرة والمشركين، على وجه لم يقع فى كثير من الزمان، مثل هذا الفتح العظيم الشأن، وذلك بمَحْض الإعانة الربانية، والنصرة الإلهية السبحانية، ولله الحمد على نصرة الإسلام، وتأييد دين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

ثم عاد حضرة الوزير المعظم، المنصور المكرم، خلّد الله عليه سوابغ النعم، إلى الأبواب الشريفة السلطانية بمن معه من عسكر الباب الشريف السلطانى وأذن لغيرهم من العسكر المنصور وسائر الأمراء والبكلاربكية بالعود إلى أوطانهم وأماكن حكومتهم مجلّلين محترمين مجبورين منصورين سالمين غانمين، واستمرّ حضرة الوزير المعظم إلى أن ورد إلى الباب الشريف العالى السلطانى، وقبل قوائم سرير الملك الشريف العثمانى، فقوبل بأنواع البشر والتَّهَانى، وشمله النظر الشريف الخاقانى، ونظرتْ إليه السلطنة بعين القرب والتَّدَانى، وأفرغ على كاهله مرة بعد أخرى خلع التشريف الخسروانى، وقبل كلّ ما عرضه حضرة الوزير المعظم المشار إليه على الأعتاب الشريفة السلطانية من المطالب، وأنعمت عليه السلطنة الشريفة بكلّ ما قصد فيه من المقاصد والمآرب.

وكان يوم دخوله إلى إسطنبول يومًا عظيمًا مشهودًا، ووقت حُلوله فى منزله السعيد وقتًا مباركًا مسعودًا، وازدحمت الخلق على مشاهدة طلعته، والتبرُّك بوجهه الكريم وميمون غُرَّته، وصاروا يتبرّكون بالنظر إلى المجاهد فى سبيل الله ويطلبون الدعاء منه وممّن معه من المجاهدين والغزاة والأسارى من النصارى يقادون بين يديه بالسلاسل والأغْلال، مقرّنين فى الأصفاد بشديد الذلّ والنكال.

ودخلت سفائن العمارة العامرة وأغربتها إلى الاسقالة، مزينة مزخرفة بالبيارق والسناجق، تخفق عليها رايات الفرح بالنصر والظفر والجلالة، وأطلقت المدافع للفرح فزلزلت الأرض زلزالها، وكادت أن تصمّ الآذان فلا تسمع الناس مقالها.

وعساكر الباب الشريف السلطانى وردت صفوفًا بعد صفوف، وتعاطفت عاطفة عائدة بالنصر والتأييد أُلُوفًا بعد ألوف، ودخل أيضًا القابودان المعظم المجاهد الكريم الأفخم، حضرة قلج على باشا المكرم، لا زال فى حرب البحر مظفراً منصوراً مسعود القدم، فقوبل من الحضرة الشريفة السليمية بغاية القبول والإقبال، وخوطب بلسان الشكر والتعظيم والإجلال، وأنعم عليه بسائر مقاصده ومطالبه، وجعل له غاية ما يتمنّاه من سؤله ومآربه، وحصل لسائر العساكر المنصورة الإحسان الموفور، وشكر لهم سَعْيَهم المشكور.

وأعظم من ذلك ما حاروه من الأجر العظيم، والثواب الجزيل الجسيم، وناهيك بهذا الغزو الفخر، وقد بقى لهم هذا الذكر الجزيل على صفحات الدهر، والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على تداول الليالى والأيام، ويحمى بحمايتهم كافّة المسلمين ويؤيّد بتأييدهم ملّة الإسلام، ويبقى أيام سلطنتهم القاهرة على الدوام إلى يوم القيام، فكم لهم ولأسلافهم الغزاة والمجاهدين، فى نصرة الملّة الحنيفية الغَرَّاء من يد بيضاء آية للناظرين، وكم فتحوا بلاد الكفر وصيّروها دار الإسلام على رغم المشركين والكافرين، وتكاد تلتحق فتوحاتهم بفتوحات الصحابة رضى الله عنهم.

ولقد حكتْ علماء أئمّة الإسلام، واتّفق قول الأئمّة الأعلام، رضوان الله عليهم أجمعين، وشملهم برحمته إنه أرحم الراحمين: أن سيوف الحق أربعة، وما عداها للنار: سيف رسول الله ﷺ فى المشركين، وسيف أبى بكر رضى الله عنه فى المرتدّين، وسيف على رضى الله عنه فى الباغين، وسيف القصاص بين المسلمين.

أقول: وسيوف بنى عثمان رحمهم الله وأبقى الملك كلمة باقية فيهم وفى عقبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى إذا اعتبرتها وتأمّلتها لا تخرج عن هذه السيوف الأربعة، فإنهم ما زالوا من أول أسلافهم رحمهم الله إلى الآن يغزون الكفار والمشركين، ويقاتلون الملحدين والباغين، ويقيمون شعائر شرائع الدين، فالله تعالى يمدّ ظلال سلطنتهم على المسلمين، ويؤيّد بهم

أهل السنَّة ويقمع بهم كافّة الملحدين، وهذا دعاء يجب أن يدعو لهم به جميع طوائف المؤمنين، فإنهم عماد الإسلام وقُوَّام هذا الدين المتين، وسبب قيامه بين الأنام، والدعاء لهذه السلطنة الشريفة دعاء لكافّة أهل الإسلام، وإعزاز لدين الله تعالى ونصرة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وتأمين البلاد وتطمين العباد، وتوهين أهل الفساد، وقطع جادرة أهل الإلحاد، وقمع جميع أرباب البغى والعناد.

* * *

فصل فيما جدده المرحوم السلطان سليم خان، من الخير والإحسان، زيادة على والده المرحوم السلطان سليمان خان، تغمدهما الله تعالى بالرحمة والرضوان

وذلك فى أول سلطنته الشريفة أمر لأهل الحرمين الشريفين أن يُزاد لهم سبعة آلاف أردب حبّ من صدقته المقبولة المبرورة زيادة على ما كان يرسله والده المرحوم لهم فى كل عام، فكانت تحمل فى كل سنة من الأنبار الخاصَّة السلطانية على ظهور الجمال من مصر إلى السُّوَيْس وتوضع فى سفائن الدشايش الشريفة السلطانية من السويس إلى بندر جُدَّة وإلى اليَنْبُع وتوزع على الفقراء، وكان برز أمرُهُ الشريف العالى أن يضاف ثلاثة آلاف إردب منها إلى الدشيشة العامّة السليمانية لفقراء المدينة الشريفة وتوزع عليهم، وأن تضاف ثلاثة آلاف أردب إلى الدشيشة العامة السليمانية لفقراء مكة المشرفة وتوزع عليهم وأن توزع خمسمائة أردب على الفقراء المنقطعين بالينبع العاجزين فيها عن السفر إلى المدينة الشريفة فيستعينون بها على التوجُّه إلى حيث أرادوا، وتوزع خمسمائة أردب على فقراء جُدَّة المنقطعين بها العاجزين عن التوجُّه إلى مكة لأداء حجّ الفرض أو النفل، وذلك مقصد جميل للمرحوم، فكان الفقراء يتوسّعون فيها ويرتفقون بها وكانت تَرِدُ إليهم فى كل

عام من أعوام سلطنته الشريفة وكان الدعاء له مبذولاً من سائر الفقراء المحتاجين المضطرّين وكان يحوز بذلك ثوابًا جزيلاً، وأَجْرًا وافيًا جميلاً، رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه المثوبة العظمى فى الدرجات الآخرة، على مقاصده الجميلة وخيراته الوافرة الجزيلة.

ومنها أيضًا ما كان يتصدّق به على فقراء الحرمين الشريفين أيام كان شاه زاده قبل أن يلى السلطنة العظمى، فإنه كان يرسل ألف دينار ذهبًا تورع أيام موسم الحجّ على فقراء مكة يستعينون بها على مصروف الحجّ أيام مِنَى وعرفة، وألف دينار ذهبًا لفقراء المدينة فى أيام موسم الحجّ يستعينون بها على الوصول من المدينة المنّورة إلى مكة المشرفة لأداء الحج الشريف فى كل عام.

وكان يخصُّ بعض العلماء والصلحاء والمشايخ بكسوة من الأصواف الخاصّة وبعض غير ذلك، يرسلها إليهم يستمدُّ منهم الدعاء بظهر الغيب منهم[1].

فلمّا ولى السلطنة الشريفة وجلس على التخت الشريف السلطانى كان يرسل لهم عوائدهم السابقة فى كل عام وجعل ذلك مضافًا إلى دفتر صرَّ الرومية فكانت تَرِدُ أيام سلطنته الشريفة واستمرّت ترد إلى الآن بعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى، وذلك أيضًا من مقاصده الجميلة وخيراته الباقية العميمة، وله أنواع من الخيرات أيضًا فى القدس الشريف وفى الشام وفى حلب وفى مصر بجامع الأزهر وغيرها من الممالك الشريفة العثمانية، غير ما بنى فى بلاد الروم من المدارس والجوامع والتكايا وغير ذلك رحمه الله تعالى.

* * *

(١) إعلام العلماء ص١١٩.

فصل فيما وقع من عمارة الحرم الشريف المكى فى أيامه

اعلم أن عمارة المسجد الحرام زاده الله تعالى شرفًا وتعظيمًا، ومهابة وتكريمًا، من أعظم مزايا الملوك والخلفاء، وأشرف مآثر أكابر السلاطين العظماء، وقد يسّر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان، أيّد الله تعالى نصرهم وخلّد سعادتهم مدى الزمان، فوقع الشروع فيها فى أيام دولة السلطان الأعظم، الخاقان الأكرم الأفخم، خليفة الله فى أرضه، القائم بإقامة سُنَّته وفرضه، ملك البرّين والبحريْن، وسلطان الروم والترك والعرب والعجم والعراقين، صاحب المشرقَيْن والمغربَيْن، خادم الحرمين الشريفين المحترمَيْن، عامر البلدَيْن الكريمين المنيفين، واسطة عقد ملوك بنى عثمان، السلطان سليم خان بن السلطان سليمان، أمطر الله تعالى على تربتهما سحائب الرحمة والرضوان، وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان، وجعل السلطنة كلمة باقية فى عقبهما إلى يوم الحشر والميزان.

إلى أن يعود القارظان كلاهما ويُحشر فى القتلى كُلَيْبٌ لوائل

وسبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام أن الرواق الشرقى منه مال إلى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رءوس خشب السقف الثالث منه عن محلّ تركيبها فى جدر المسجد، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباى وجدر المدرسة الأفضلية التى هى الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله من شرقى المسجد الحرام، وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه فى الجدر المذكور أكثر من ذراع ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهرًا بينًا، وصار نُظّار الحرم الشريف يصلحون المحلّ الذى قد فارق خشبُه سطح الحرم محلّ تركيبه فى الجدر إمّا بتَبْديل خشب السقف بأطْول منه أو بنَحْو ذلك من العلاج.

وأما الرواق الذى ظهر ميله إلى صحن المسجد فترّسوه بأخشاب كبار

حفروها فى المسجد تمسكه عن السقوط، واستمرّ الرواق الشرقى متمسكًا على الأسلوب فى أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان وصدرًا من دولة المرحوم السلطان سليم خان، ثم لمّا فحش ميلان الرواق المذكور عُرِض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية فى سنة تسع وسبعين وتسعمائة، فبرز الأمر الشريف السلطانى بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإتقان والإحكام، وأن يجعل عوض السقف الشريف قُبَبًا دائرة بأَرْوقة المسجد الحرام ليؤمن من التأكُّل فإن خشب السقف كان متأكّلاً من جانب طرفَيْه بطول العهد، وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبه بخشب آخر فى كل قليل إذ لا بقاء للخشب زمانًا طويلاً مع تكسُّر بعضه[1].

وكان سقفان بين كل سقف نحو ذراعَيْن بذراع العمل، وصار ما بين السقفين مَأْوًى للحيَّات وللطيور فكان من أحسن الرأى تبديلها بالقبب لتمكّنها ودفع موادّ الضرر عنها[2].

ووصلت أحكام سلطانية إلى بكلربكى مصر يومئذ الوزير المعظم حضرة سنان باشا أدام الله تعالى سعادته وإقباله، وضاعف عظمته وإجلاله، أن يعيّن لهذه الخدمة من أمراء السناجق المتحفّظين بمصر من يخرج عن عُهدة هذه الخدمة الشريفة ويكون فى غاية الديانة والأمانة والمعرفة والخير والصلاح، فأمر البكلربكى يومئذ وهو الوزير المعظم سنان باشا أمراء مصر أن يقبلوا هذه الخدمة فما أقدم أحد على تلقّيها بالقبول لكثرة مشقّتها واشتغالهم بأمور دنياهم والتوغُّل فيما يعود عليهم نفعه عاجلاً من غير مشقّة.

وكان من جملة الأمراء المحافظين بمصر كَتْخَداء المرحوم إسكندر باشا الجركسى بكلربكى مصر سابقًا فخر الأمراء العظام، ذخر الكبراء ذوى الاحترام، أحمد بك بارك الله تعالى فيه وأناله من خيرى الدنيا والآخرة ما يرتجيه، وكان ممّن قد اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة من حبّ الخير

(١) إعلام العلماء ص ١٢٠.

(٢) نفس المصدر.

والتوجُّه إلى الله تعالى وقلّة الميل إلى الدنيا وزخارفها، والميل إلى الفقراء والضعفاء والعلماء والتواضع مع الناس وحبّ المعدلة والاستقامة مع صدق الخدمة وكمال الديانة والأمانة والإقدام وعُلُوّ الهمّة ووفور الاهتمام، فطلب من حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة الشريفة وأضيف إليه عمل بقيّة دبل عين عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة، فإن السلطنة الشريفة أمرت أن يُبنى بها دبل مستقلٌ ولا تجرى فى دبل عين حُنَيْن، فعُيِّنت هذه الخدمة أيضًا للأمير أحمد المذكور وعرض له ذلك إلى الباب العالى فوردت الأحكام الشريفة السلطانية له بذلك حسب ما عُرض له.

وأُضيف له إلى هذه الخدمة المشرفة سنجق بندر جُدَّة المعمورة تعظيمًا لشأنه وتوقيرًا لقدره ومكانه، وبعد وُرود الأحكام السلطانية إليه أخذ فى أهْبة السفر وتوجّه من مصر من طريق البحر إلى بندر جُدَّة، ثم وصل إلى مكة شرفها الله تعالى فى أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة[1]، مهتمًا غاية الاهتمام فيما أُمر به من خدمة المسجد الحرام، متوجّهًا إلى ذلك مقبلاً عليه بغاية الإقدام وسائلاً من الله تعالى الإعانة والإمداد التامّ، ثم إن الأوامر السلطانية وردت أن يكون الناظر على هذه الخدمة الشريفة والمتكلّم عليها من جانب السلطنة المنيفة سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام بدر المِلّة والدين حسين الحسينى خلّد الله تعالى سعادته على الدوام، ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التامّ، وشدّ نطاق حزمه، على مناطق عزمه، وقام فى ذلك أحسن قيام، وحصل بين يدى الناظر والأمير أحمد المشار إليه كمال الملاءَمة والاتّفاق، وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق.

وجرت عادة الله بأن الخير كلّه فى الوفاق، والشرّ جميعه فى الشقاق، ولم يكن الرفق فى شىء إلا زانه، ولم يكن العنف فى أمر إلا شانه، ومن أراد الرفق بعباد الله تعالى رفق الله تعالى به وأعانه، ووصل لهذه العمارة

---

(١) إعلام العلماء ص١٢٠.

الشريفة معمار دقيق الأنظار، جزيل الآثار، تقدّم له مباشرة الأبنية العظيمة، وحصلت له بالتجربة خبرة تامّة ومعرفة مستقيمة، أجمع المهندسون على تقدُّمه فى هذه الصناعة، ودقّة نظره فى لوازم هذه البضاعة، اسمه محمد جاوش الديوان العالى، وهو إنسان من أهل الخير عظيم الأمانة، كثير الديانة مستقيم الرأى منور الباطن مشكور السيرة زاد الله تعالى توفيقه وأرشد طريقه.

فاتّفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع فى هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصل إلى الأساس فشرع أولاً فى إكمال الدبل المستقلّ لإجراء عين عرفات وبنائه من جهة المُدَّعَى، ثم مرّ به فى عرض خان قايتباى إلى جهة المروة، ثم إلى جهة سُوَيْقة، ثم عطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهاه(١).

وبنى قبّة فى الأبطح جعل فيها مقسم ماء عرفات، وركب فى جدره بزابيز من النحاس يشرب منها الماء، ثم بنى مسجدًا وسبيلاً وحوض ماء للدوابّ على يمين الصاعد إلى الأبطح فى قبلى بستان بيرم خواجه الصائر إلى المرحومة الخاصكية أُمّ السلاطين طاب ثراها وبنى مسجدًا آخر وسبيلاً ومتوضّأ فى انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد(٢)، وكلٌّ ذلك من أعمال الخير الجارية النافعة للمسلمين، وعرض ذلك على أبواب السلطنة فأنعمت على الأمير المشار إليه بسبعين ألف عثمانى تَرَقِّيًا فى علوفته فى مقابلة هذه الخدمة، ثم شرع فى تجديد أَرْوقة الحرم الشريف فبدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام فى منتصف ربيع الأول سنة ثمانين وتسعمائة، وأخذت المعاول تعمل فى رأس شرفات المسجد وطبطاب سقفه، إلى أن ينكشف السقف فتنزل أخشابه إلى الأرض، وتجمع فى صحن المسجد الشريف وينظف الأرض من نقض البناء وأتربته وتُحْمَل على الدوابّ وتُرْمَى فى أسفل مكة فى ناحية جبل الفلق، ثم تُمال الأساطين الرخام إلى أن تنزل باللطف إلى

(١) منائح الكرم ٣/ ٤٦٢.
(٢) منائح الكرم ٣/ ٤٦٣.

الأرض. واستمرّوا فى هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك من باب على إلى باب السلام وهو الجانب الشرقىُّ من المسجد، ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلاً فأخرجوا الساس جميعه وكان جدرًا عريضًا نازلاً فى الأرض على هيئة بيوت رُقْعة الشطرنج، وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الأرض قاعدة تركيب الأسطوانة على تلك القاعدة، فشرع أولاً فى وضع الأساس على وجه الإحكام والإتقان من جانب باب السلام، لستٍّ مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين وتسعمائة[1].

واجتمعت الأشراف والكبراء والعلماء والقضاة والأمراء والفقراء والمشايخ والصلحَاء تبرُّكًا وتيُّمنًا بالحضور فى هذا الخير العظيم، وقُرِئَت الفواتح بإخلاص من سُوَيْد القلب والصميم، وذُبِحَت الأبقار والأنعام والأغنام، وتصدّق بها على الفقراء والخُدَّام، ووضع الأساسُ المبارك، بإعانة الله تعالى وتبارك، وكان يومًا مباركًا مشهودًا، ميّمنًا ميمونًا مسعودًا، ولله الحمد على هذا الإكرام، وله الشكر والثناء الحسن فى المبدأ والختام[2].

وكانت الأساطين المبنية سابقًا على نسق واحد فى جميع الأروقة، فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها لقلّة استحكامها، إذ القبّة يجب أن يكون لها دعائم أربع قوية تحملها من جوانبها الأربعة، فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى تُبنى من الحجر الشُّمَيْسى الأصفر، تكون سُمْكها مقدار سُمْك أربع أسطوانات من الرخام ليكون مُدَّعمًا لها من كلّ جانب، فتقوى على تركيب القبب من فوقها ويكون كل صفّ من أساطين الأروقة الثلاثة فى غاية الزينة والقوّة[3].

ففى أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسى ثم أسطوانة رُخام أبيض من أساطين الرواق السابق عليهما عقد، ثم أسطوانة

(١) إعلام العلماء ص١٢٠ ـ ١٢١.
(٢) المصدر السابق ص١٢١.
(٣) إعلام العلماء ص١٢١.

رخام كذلك بينها وبين الذى قبلها عقد آخر، ثم أسطوانة رخام كذلك، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسى وعلى هذا المنوال إلى آخر هذا الصفّ من أساطين الرواق، ثم الصفّ الثانى من الرواق الثانى كذلك على هذا المنوال، ثم الصفّ الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال[١].

ثم بُنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين فى دور المسجد جميعه، وشرعوا من ركن المسجد الشريف من جهة باب السلام كما تقدّم، وقاسوا تلك الصفوف بخطّ مستوٍ، وأزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار والاعوجاج[٢].

والحجر الشميسى: نسبه إلى شُمَيْس، تصغير شمس جبل بقرب بئر شُمَيْس، وهى حدُّ الحرم من جانب جُدَّة به جُبَيْلان صُفر تُكسر منهما هذه الأحجار وتُحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة.

فكان فى إدخال هذه الدعامات الصُّفر ما بين الأساطين الرخام البيض حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة، وهى أن أساطين الرخام الباقية فى المسجد ما كانت تفى بجوانبه الأربعة، لأن الجانب الغربى منه احترقت أساطينه الرخام وسقفه فى أيام الجراكسة فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة[٣].

وأرسل من أمرائه الأمير بيسق الظاهرى إلى مكة المشرفة، فعمر الجانب الذى احترق من المسجد بالحجر الصوان المنحوت كما قدمنا ذكر ذلك فى محلّه، فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام وهى الجانب الشرقى والجانب اليمانى والجانب الشامى على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض، والجانب الغربى أساطينه جميعه من قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان غير مناسبة للجوانب الأخر الآن، وبإدخال هذه الدعامات

(١) المصدر السابق.
(٢) نفس المصدر.
(٣) إعلام العلماء ص١٢٢.

الصفر صارت الأساطين كلُّها على نسبة واحدة وهى أن كلّ ثلاث أساطين من الرخام الأبيض تكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسى، وذلك فى غالب الأروقة من الجوانب الأربعة من المسجد الشريف، كلُّها قائمة على أقدامها بغاية الإحكام[1]، كأنها صفوف واقفة بالأدب حول صحن بيت الله الحرام المعظم من جهاته الأربع، وهى أعلى من الارتفاع السابق وأرفع، كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها بل تتفوّق على ما سواها وتطول:

إن الذى سَمَكَ السماء بَنَى لنا بيتًا دعائمه أعزّ وأطول

واستمرّ أمين العمارة الشريفة حضرة الأمير أحمد المشار إليه، شكر الله سَعْيَه وبارك له وعليه، فى غاية بذل الجدّ والاجتهاد، مقرون الحركة والتوفيق والسداد، يتلطّف بالخَدَم والعُمَّال، ويتفضّل عليهم بأنواعٍ الإفضال، ويوصلهم أجورهم كاملة لا يقتطع منها مقتطعًا لأحد ولا يضرٌ بحاله، ولا ينقص من أجرتهم شيئًا بل يزيدهم من عنده ويسامحهم بماله، مع كمال الدّقة فى الأموال السلطانية والحرص على حفظها وعدم التبذير منها.

وأمّا مالُ نفسه فيوسّع به على الفقراء ويُبذل لهم وللخُدَّام والعُمَّال ما أراد، ويحسن إلى أهل البلاد، مع التواضع وحسن الخُلق ولين الكلام، ومواتاة الناس فى جميع المهامّ، والمشى فى تشييع الجنائز معهم وعيادة مرضاهم، وسلام القدوم واستجلاب رضاهم، بحيث ترك عظمة الإمارة وصار من جملة فقراء الناس لكثرة تواضعه، فأحبَّه الناس وحمدوه وشكروا جميله وإحسانه وذكروا كثرة تجمّله ولطفه.

ولقد جاءَنى إلى منزلى متفضّلاً مرارًا وأنا من آحاد الفقهاء بل من أدنى الفقراء، وما فعل ذلك إلا محبّة فى الله أحبّه الله لا لأمرٍ يناله منّى، فإنه أجلُّ قدرًا وأعظم خطرًا من ذلك، وما ذكرته إلا ليُعْلَم حسن تواضعه وتخلقه لهذه الخدمة السنيّة الفاخرة، وأتمّ عمل هذا الخير العظيم على يده

(١) إعلام العلماء ص١٢٢.

فيكفيه بذلك سعادة الدنيا والآخرة، فكم من وزير كبير نبيل، بل ملك عظيم جليل، يتمنّى الوقوف فى هذه الخدمة مع جلالته وعظمته، ويعدها من أكبر سعادة دنياه وآخرته، وما قدرها الله تعالى، إلا لمن ظهرت العناية الأزلية فى حقّه، فاختاره الله تعالى لذلك من بين عباده واصطفاه من خلقه، وهو هذا الأمير الكريم الصفات، فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات، ويسدّده فى أفعاله وأقواله ويوفّقه للباقيات الصالحات.

فلما أكمل جانبيْن من المسجد الحرام وهما الجانب الشرقى والجانب الشمالى، وصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم، إلى دار النعيم، رحمه الله وطيّب ثراه، وأحسن فى الدار الآخرة مثواه، واستمرّ حضرة الأمير أحمد المشار إليه، أحسن الله تعالى إليه، فى عمله المبرور، وفعله المعمور، بالخير المغمور، مستعينًا بالله ولىّ الأمور.

* * *

فصل فى وفاة المرحوم المقدس السلطان سليم خان الثانى وانتقاله إلى عالم القدس من ملك هذا العالم الفانى

لما كان لكلّ أجلٍ كتاب، ولكلّ نفسٍ أنفاس معدودة بقدر الله تعالى فى أُمّ الكتاب، لا يسلم منه والد ولا مولود، ولا سلطان ذو جنود، ولا سيّد ولا مَسُود، ولا ينجو منه كلُّ شىء خرج من كتم العدم إلى فضاء الوجود.

هو الموت سلطان البرايا كعاجز ... لديه غَلاَّبٌ كمَنْ لم يغالب
ودرعُ الفتى فى حكمه درع غادة ... وإيوانُ كسرى من بيوت العناكب

قدر الله تعالى له بالإنابة عن كل ما يخالف أمره ورضاه، وغلب عليه عند قرب توجّهه إلى الله تعالى صلاحه وتقواه، وطهّره بمقاساة المرض ونقّاه، وصيّره نورًا روحانيًا، وروحًا نورانيًا، وجوهرًا علويًا سَنيًا، وهكيلاً شريفًا ملكيًّا يصلح لجناب قدسه الكريم، ودعاه فلبّاه بقَلْب سليم، ومضى

إلى رحمة ربّه الرحيم، فائزًا بالملك الأخروى فى جنّات النعيم، مخاطبًا من الحضرات الإلهية، بلسان الألطاف الرحمانية: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] وكان وقوع هذا الأمر المهول لسبع مضين من شهر رمضان، زمان فيضان الرحمة والإحسان، سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، ودُفن جسده الشريف، وهيكله الطاهر المنيف بقُرب أياصُوفيا فى تربة طيّبة غرّاء، وروضة نضرة غنّاء، تنوح بها ورق الأطيار، وتبكى فيها سُحُب الأمطار، وتشقّق أثوابها أكمام الأزهار، وتلطم خدودها أوراق البهار، أنزل الله عليه مطر الرحمة والرضوان، وجعل قبره الشريف روضة ناضرة من رياض الجنان.

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله
أفاض عيون الناس حتى كأنّما ... عيونهم ممّا تفيض أنامله
فيا عين سحّى لا تشحى بسائلٍ ... على ملك لا يعرف النهر سائله
فإن دفنوا تحت التراب جماله ... فما دُفنت أوصافه وشمائله
سقى جَدَثًا هالت عليه ترابه ... أناملهم سحّ الغمام ووابله

* * *